الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

تايوان.. كيان يبحث عن عنوان ودور

د. عبدالله المدني
محاضر اكاديمي - البحرين

منذ عام ١٩٩٣ وتايوان تكرر كل عام دون نجاح تقديم طلب لنيل عضوية الأمم المتحدة التي سحبت منها في أوائل السبعينيات لمصلحة الصين، بما في ذلك بطبيعة الحال عضويتها الدائمة في مجلس الأمن الدولي. غير أن الجديد هذا العام هو أن إدارة الرئيس الحالي "تشين شوي بيان" تقدمت بطلب الحصول على مقعد تحت اسم "تايوان" بدلا من اسم "جمهورية الصين"، وذلك في محاولة للقول بأن تايوان كيان لا علاقة له بالصين وشيء مختلف عن الأخيرة، وهو ما فشلت فيه في ضوء معارضة بكين ومجموعة كبيرة من الدول بما في ذلك الولايات المتحدة.

وواشنطون، بطبيعة الحال، شأنها في ذلك شأن دول عديدة، تتعاطف مع رغبات الشعب التايواني وقادته في أن يكون لهم دور معترف به في المحافل الإقليمية والدولية يتناسب مع ما حققوه على مدى العقود الستة الماضية من تقدم سياسي واقتصادي وعلمي. غير أن الإدارة الأمريكية الحالية لها اولويات منها الحفاظ على قدر من التعاون والتفاهم مع القطب الصيني للتعامل مع الملفات الساخنة الراهنة وعلى رأسها موضوع البرنامج النووي الكوري الشمالي، والتحديات التي تشكلها إيران، وقضية مكافحة الإرهاب، وأزمة الشرق الأوسط، والوضع في العراق وأفغانستان، وبالتالي فهي ليست مستعدة للسير مع حلفائها التاريخيين في تايبيه في موضوع يمكن أن يسخن الأوضاع في منطقة مضيق تايوان ويضع واشنطون في مأزق حرج في ضوء التزامها المبدئي بالدفاع عنهم وحمايتهم. ومن هنا رأينا الأخيرة تعارض الطلب التايواني، بل وتندد علنا بسياسات الرئيس شوي بيان الرامية إلى إجراء استفتاء شعبي حول نيل عضوية الأمم المتحدة، وتعلن تمسكها بمبدأ الصين الواحدة جنبا إلى جنب مع مبدأ المحافظة على الوضع القائم في مضيق تايوان. وهذا بدوره أغضب دوائر كثيرة في تايبيه بدليل صدور تعليقات رسمية وغير رسمية منددة بمواقف الحليف الأمريكي وسياساته غير مسبوقة في شكلها ومفرداتها وسخونتها.

والحقيقة انه لولا أحداث الحادي من أيلول ٢٠٠١ التي غيرت اولويات إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش لكان الأمر مختلفا. فهذه الإدارة حينما جاءت إلى السلطة قبل ست سنوات كانت ترى في الصين منافسا خطرا على مصالحها الاستراتيجية، وبالتالي عقدت العزم على تعزيز قدرات تايوان كإحدى وسائل احتواء الصعود الصيني المشهود. غير أن هذا توارى ليحل محله التقارب والتفاهم مع بكين في جملة واسعة من الملفات المهمة ابتداء من ملف مكافحة الإرهاب الدولي وانتهاء بملف الاحتباس الحراري، ناهيك عن تعزيز التعاون والتبادل التجاري بين البلدين والذي حقق هذا العام أرقاما غير مسبوقة وصلت إلى نحو ٣٠٠ بليون دولار.

وترى واشنطون أن مساعي حكومة تايوان، التي لا تعترف بها في الوقت الحاضر سوى ٢٤ دولة صغيرة غير مؤثرة على الساحة الدولية، لها علاقة بالصراعات السياسية الداخلية، وتحديدا لجهة رغبة رئيسها الحالي شوي بيان في دغدغة عواطف التايوانيين من اجل تعزيز شعبية حزبه الحاكم (الحزب التقدمي الديمقراطي) المتهاوية قبيل الانتخابات الرئاسية والبرلمانية القادمة نهاية العام الجاري. وهذا لئن كان صحيحا ويؤكده مراقبون كثر، إلا انه لا ينفي إصرار معظم قادة الأحزاب والمنظمات الجماهيرية في تايوان على تسوية الوضع القانوني لبلادهم وبشكل يتيح لها لعب دور مستقل ومعترف به على الساحة الدولية.

والمعروف أن الرئيس شوي بيان، لم ينجح في طرد حزب الكومينتانغ التاريخي الذي حكم تايوان دون انقطاع منذ تأسيسها في عام ١٩٤٩ وحتى عام ٢٠٠٠ من السلطة إلا بفضل تبني برنامج يدعو إلى إعلان الاستقلال عن البر الصيني. وهو لئن تراجع عن ذلك لاحقا تحت تهديدات بكين وضغوط الحليف الأمريكي، فانه كثيرا ما عاد إلى التحدث عن هذا الملف إلى الدرجة التي غضبت منه واشنطون في مناسبات عديدة، بل وحالت ذات مرة دون دخوله أو مروره في الأراضي الأمريكية. كما انه منذ بدء فترته الرئاسية الثانية في عام ٢٠٠٤ بدأ تدريجيا في إزالة الاسم القديم لبلاده وهو "جمهورية الصين الوطنية" من المناهج المدرسية والمؤسسات الرسمية والمطبوعات الحكومية لصالح اسم "تايوان"، الأمر الذي فسرته بكين على انه عمل استفزازي ومقدمة لإعلان الاستقلال، وردت عليه بإصدار تشريع يقضي بالتخلي عن الوسائل السلمية واللجوء إلى الأعمال العسكرية إن أعلنت تايبيه صراحة استقلالها.

لكن كيف ينظر الآسيويون، وتحديدا دول جنوب شرق آسيا، إلى الطموحات التايوانية، هي التي لا زالت تتمتع بروابط غير رسمية مع هذا الكيان، وتستفيد من إمكانياته الاقتصادية والاستثمارية والعلمية والتكنولوجية، وتستقبل مئات الآلاف سنويا من رجال أعماله وسياحه، وأحيانا بصورة تفوق الفائدة المتحققة من روابطها مع الصين؟

لاشك أن هذه الدول تتعاطف مع مساعي تايبيه، وان لم تجاهر بذلك علنا حفاظا على علاقاتها مع بكين وتمشيا مع الأعراف الدبلوماسية. وما لا يقوله الرسميون يمكن سماعه في دوائر الأنشطة الاقتصادية غير الرسمية التي تدعو على الأقل إلى إيجاد حل لمنح تايوان مقعدا في بعض المنظمات الدولية والإقليمية من اجل الاستفادة القصوى من إمكانياتها الكبيرة.

فعلى سبيل المثال لا ترى هذه الدوائر مبررا للرفض الذي قوبل به طلب تقدمت به تايبيه مؤخرا للانضمام إلى منظمة الصحة العالمية التي كثيرا ما منحت عضويتها إلى دول غير مستقلة، لا سيما وان وجود دولة معروفة بتقدمها الطبي واكتشافاتها العلمية والدوائية كتايوان في اطر المنظمة يعني الاستفادة منها في مكافحة الأمراض المعدية وتعزيز التعاون الطبي والصحي العالمي بصورة اكبر من دول كثيرة أخرى.

وبالمثل فان وجود تايوان كعضو في التجمعات والهياكل الاقتصادية الآسيوية، كمبادرة تشيانغ ماي الجنوب شرق آسيوية المعنية بمراقبة الأنشطة المصرفية والنقدية للحيلولة دون وقوع أزمة اقتصادية كبرى كتلك التي وقعت في عام ١٩٩٧، مفيد وحيوي بفضل ما تمتلكه هذه البلاد من خبرات وأنظمة مصرفية ونقدية راقية واحتياطيات مالية ضخمة.

والشيء نفسه يقال حول منح العضوية لتايوان في المنظمات والتجمعات الإقليمية والدولية المعنية بالثقافة والتعليم والبحث العلمي، حيث تتمتع هذه البلاد، بفضل ما استثمرته خلال العقود السابقة من أموال وجهود، بمؤسسات تعليمية متقدمة وكوادر مؤهلة وخبرات فريدة، يمكن الاستفادة منها في رفد المشاريع والبرامج الإقليمية والدولية في الحقل المعرفي.

بقي أن نقول أن رفض الطلب التايواني لنيل عضوية الأمم المتحدة هذا العام أيضا ليس نهاية المطاف. فتايبيه ستواصل هذه المساعي حتى في ظل عودة حزب الكومينتانغ إلى السلطة في الانتخابات القادمة، وبكين ستعارض بطبيعة الحال لكن دونما التورط في ردود فعل عنيفة يفسد عليها صعودها ومكانتها الدولية، والاكتفاء في كل مرة بالضغط على الأمريكيين للجم حلفائهم في تايبيه وتذكير واشنطون بالتزامها المعلن بمبدأ وجود صين واحدة.

تباشير فكر النهضة في العراق (نحو الراديكالية)

سعد محمد رحيم
كاتب

هل مثلت الإيديولوجيات الراديكالية القومية منها والماركسية امتداداً طبيعياً لفكر النهضة العربية؟، وهل ينتمي كلاهما إلى نظام الفكر ذاته؟، أم أن ما حدث هو محض تراجع وتشويه وبتر (وليس قطيعة بالمعنى الذي قال به باشلار) بين هذه الإيديولوجية وذلك الفكر؟. وإذا كنا نستطيع أن نشير إلى زحزحة بطريقة ما، نعترف إنها نسبية ومحدودة، حصلت مع بزوغ فكر النهضة العربية من حيث إدخال مفاهيم جديدة في الفكر العربي وارتياد مناطق جديدة للتفكير، وطرح أسئلة جديدة، ومحاولة صياغة رؤية أخرى للذات والعالم (وهنا، لم يقطع فكر النهضة إلاّ جزئياً مع منظومة الفكر الإسلامي ـ القروسطي ـ باستثناء محاولات مجهضة قام بها علي عبد الرازق وطه حسين، وآخرون بعدهما، كان من الممكن أن تنتهي بزحزحة في الفكر أوسع وأعمق). أقول؛ إذا كنا نستطيع تلمس مثل هذه الزحزحة فلمَ لم تفلح الإيديولوجيات الراديكاليّة في إجراء زحزحة حقيقية تُكمل نواقص فكر النهضة وتحقق خطوة مضافة على طريق تحرير العقل من قيوده وإكراهاته، وتلج معه في مناطق كانت محرمة، ضاجة بما هو (منسي ومتنكر ولا مفكر فيه، بحسب تحديدات محمد أركون).

إذا كان الفكر النهضوي العربي هو وليد الانفتاح على الغرب وانتشار مبادئ عصر التنوير الأوربي والثورة الفرنسية خارج النطاق الغربي (مع عوامل داخلية وموضوعية أخرى ليس هنا مجال للخوض في تفاصيلها) فإن الفكر القومي العربي (الراديكالي) هو وليد تداعيات الأحداث والمتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتطورات الفكر في القرن العشرين. ولم يكن للفكر القومي العربي أن ينطوي على الصيغة التي انتهى إليها لولا التماس مع فكر الغرب، واستيراد واستثمار ومن ثم السعي لتبيئة المفاهيم الفكرية الغربية التي راجت منذ عصر التنوير وحتى الآن، ومنها فكرة القومية ذاتها، إلى جانب مفاهيم (الاشتراكية، الحرية، الدولة/ الأمة، العلمانية، المجتمع المدني، الحزب السياسي، الخ..). وقد كان تأثير الماركسية واليسار الغربي ومبادئ حركات التحرر في العالم الثالث والإيديولوجيات الفاشية الأوربية واضحاً، ومتداخلاً في خليط غريب من نوعه، سيكرس تناقضات ذلك الفكر وتخبطه في الممارسة. فضلاً عن هذا، وفي الوقت الذي كان فيه الماركسيون العرب يكيّفون تصورهم عن الواقع بما يتوافق ومقولات الإيديولوجيا الماركسية كما طُرحت بنسختها السوفيتية فإن التصور القومي العربي بني على وفق افتراضات اعتقد القوميون أنها قوى كامنة في الواقع والتاريخ. ولكن ما جرى هو استبدال صورة الواقع وحقيقته كما هي بصورة موهومة مفترضة. وكان هناك بعد رومانسي حالم في الفكر القومي العربي أفضى إلى التعمية عن رؤية الواقع الموّار بتناقضاته وصراعاته وممكناته وثغراته وتحولاته. وظل جزء كبير من أدبيات الأحزاب القومية غارقاً في العموميات، وفي الإنشاء الفضفاض، بعيداً عن التفاصيل والرؤية التحليلية المنهجية لها، كما لو أن كتّاب تلك الأدبيات كانوا يتهربون من مواجهة الواقع، إما لأنهم لا يفهمونه، أو يفتقرون إلى الأدوات المنهجية العلمية لفهمه، أو أن ما كانوا يرونه كان يتعاكس مع مسبقاتهم المبدئية (الإيديولوجية)، أو لا يمتلكون الجرأة الكافية على مواجهته وتحمل مسؤوليته. ولم يكن الخلل دائماً في موهبة وقدرة المفكر القومي المنتمي للحزب القومي، بل في الحزب ذاته، في طبيعة العلاقة بين ذلك المفكر وحزبه، ما يريده الحزب من المنتمي، وما يفرض من قيود على تفكيره وسلوكه.

وعلى خلاف الأحزاب الشيوعية في العالم التي تأسست فوق ركام هائل من التراث النظري الاشتراكي فإن الأحزاب القومية (العربية) لم تعرف مثل هذا التراث وقد تأسست على هدي بضع مقولات وأفكار عامة مأخوذة إما من التراث الفكري الغربي، أو من تراث النهضة العربية في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فيما راحت تجهد لتطوير فكرها فيما بعد على وفق منهج (التجربة والخطأ) وبالتعاطي مع الإيديولوجيات الشائعة.. كانت ثمة أحلام كبيرة من غير أن يوازيها منهج فكري واضح، أو دراسات معمقة على صعد الفكر والواقع والتاريخ. فلم تنطو الإيديولوجية القومية على نظرية في الاقتصاد تستمد مكوناتها وعناصرها ومنهجها من صلب الإيديولوجية نفسها في الوقت الذي تدرس وتحلل وتحدد اتجاهات الواقع الاقتصادي العربي من منظور المفاهيم العلمية للفكر الاقتصادي كما تأسست وتطورت على يد المنظرين الاقتصاديين (الماركسيين منهم والرأسماليين). وكذلك الأمر في نواحي الدراسات الاجتماعية.. وقد أبرزت النظرية القومية جوهر اختلافاتها عن الماركسية في نقاط مختزلة، مبسطة تخص المسألة القومية والمسألة الدينية والروحية ودور الاقتصاد والعوامل الفكرية والروحية في تطور المجتمعات ومسائل التطبيق الاشتراكي.

كانت الصورة المثالية المجردة عن الأمة بماضيها تمنع من رؤية التناقضات والاختلالات الاجتماعية الحقيقية، ناهيك عن الإكراهات الثقافية الموروثة التي تكبح تفتح الوعي في فضاء من الحرية والإبداع، ولذا كان الفشل في صياغة نظرية في الاقتصاد والطبقات الاجتماعية وصراعاتها والتحليل الطبقي والدولة والنظام السياسي، وفهم سياق الصراع والتطور السياسي والاقتصادي في العالم، وموقع الأمة منه.

راح الفكر القومي الذي نشأ، أول الأمر في العراق برداء ليبرالي علماني، كما في بلدان عربية أخرى، يتخذ شيئاً فشيئاً منحى راديكالياً، متصاعداً ليبلغ الذروة في عقد الخمسينيات، مع ثورة ١٩٥٢ في مصر، وما رافقتها من تحولات وصراعات، واستحواذ جمال عبد الناصر بشخصيته الكاريزمية على الأذهان. وحدث كسر في مسار نمو فكر النهضة. وإذا كان بعض الباحثين يرجعون هذا الكسر لعلة في نسيج فكر النهضة ذاته، أو إلى التأثر بالمناخ الراديكالي الذي ساد العالم بعد الثورة الروسية/ أكتوبر ١٩١٧ وظهور حركات الاستقلال في العالم الثالث للتخلص من الاستعمار وعقابيله، فإن آخرين يتحدثون عن حصول مؤامرة.. وقد كان المجتمع مهيئاً نفسياً واجتماعياً لأسباب تاريخية وأخرى دولية معاصرة لتقبل الفكر الراديكالي المرتكز على مقولات الكفاح المسلح والعنف الثوري، وليس الفكر الليبرالي القائل بالطريق السلمي لتسلم السلطة بوساطة النظام البرلماني بتقاليده وآلياته. فعملت الانقلابات العسكرية المتتالية على إضعاف كيان الدولة، وبالتالي على الفتك بالتوجه النهضوي الذي لا يتبلور إلا من خلال تنمية شاملة ومستدامة، وهذا ما لم يحصل.

لم تكن هناك طبقة وسطى مكوّنة على أرضية اقتصادية اجتماعية صلبة وبمشروع وطني سياسي واضح وواقعي. والطابع الريفي للمجتمع العراقي يجعل من التكيف مع الأفكار الراديكالية ممكنة أكثر بكثير من تكيفه مع الأفكار الليبرالية، أو الخاصة ببناء مؤسسات المجتمع المدني. ولا ننسى أيضاً وهن وهشاشة المؤسسات الليبرالية التي وجدت في العراق بعد تأسيس الدولة وفي ظلها، والفساد المستشري في بنيتها، ومحدودية نجاحها في أداء وظيفتها. وعموماً لم تستلهم الدولة العراقية الجديدة التي تأسست في ١٩٢١ أفكار عصر النهضة العربية بقدر ما استلهمت أفكار وافدة من الغرب عبر الموشور التركي.. فيما كان المجتمع المنفصل عن سلطة الدولة عرضة لتيارات من الأفكار الراديكالية الماركسية والقومية التي راحت تنشط في تلك الآونة.

يقول الأستاذ حسن العلوي: "وكانت مدرسة السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ عبد الرحمن الكواكبي والإمام محمد عبده وإمداداتها في العراق قادرة أن ترفد هذه الدولة الجديدة بفكر مزيج من الأصالة والرغبة في التنوير والتحديث" (دولة الاستعارة القومية/ ص٤٣). والسؤال: هل كان هذا ممكناً حقاً في سياق الشروط الموضوعية المحايثة لتأسيس هذه الدولة؟ وكيف؟ أي على وفق أية آليات؟ وما هي الشرائح والطبقات والنخب والمؤسسات التي كان بمقدورها تمثل وحمل وإشاعة تلك الأفكار؟ وما هي المعوقات التي حالت دون ذلك؟. وأيضاً لماذا صمدت الأفكار الماركسية طويلاً، في سبيل المثال، ووجدت لها قبولاً عند شرائح واسعة من المجتمع، على الرغم مما تعرض له الماركسيون من تنكيل وقمع، فيما لم تينع وتنمو وتنتشر أفكار النهضة بردائها الليبرالي الإصلاحي وبصيغتها النظرية التي وجدت في مصر بخاصة؟. وحتى الأحزاب الإسلامية، بمختلف توجهاتها الطائفية، التي ستنتعش فيما بعد في العراق، ستستنسخ الشكل الراديكالي.

لم يكن من الممكن قيام الدولة العراقية، في حينها، من غير اندلاع الثورة العربية في الحجاز التي امتدت تأثيراتها إلى المناطق العربية المحيطة، ومن غير أن نتجاهل الدور الاستعماري لبريطانيا وصراعات المصالح الإمبراطورية في المنطقة. وهنا نتساءل؛ هل تغلغل فكر النهضة العربية بعمق في وعي نخب عراقية ذات نفوذ وتأثير إلى الحد الذي يمكن أن تتعامل معها إبداعياً وتكيفها وترفد بها الدولة الجديدة؟ إذن لماذا لا نقع على ثمار جهود نظرية في أفق فكر النهضة كان يُفترض أن ترى النور في تلك الحقبة الخطرة من تاريخنا؟

يتحدث الأستاذ العلوي هنا عن مؤامرة غربية استهدفت استثمار فكر النهضة عراقياً، يقول: "وإذا جاز لنا أن نستعين بالتفسير التآمري للتاريخ فإن التآمر الغربي على الفكر العربي الإسلامي قد بدأ مع عملية إقصاء مدرسة الشيخ الكواكبي والإمام محمد عبده لمصلحة مترجمات ألمانية وفرنسية وإيطالية وإنكليزية قدمها ساطع الحصري ومدرسته ثم ميشيل عفلق ومدرسته" (دولة الاستعارة القومية/ ص٤٣). هل حدث هذا في العراق وحده، أم أن فكر النهضة لم يجد له مرتعاً ملائماً ليكون في صلب فلسفة دولة الاستقلال في أي بلد عربي؟ وكيف استطاعت الإيديولوجيات القومية والشيوعية الراديكالية أن تنتشر في نطاق اجتماعي واسع فيما أخفق فكر النهضة، بمنطقه العقلاني والإصلاحي التنموي، وبأفقه الإنساني المنفتح، في العثور على أرضية اجتماعية حاضنة والوقوع على إطار مؤسساتي فعال. ألا يحق لنا هنا أن نتحدث عن قصور في فكر النهضة العربية ومنهجه وأفقه؟.

ولكن ألا تعد الأيديولوجيات الراديكالية نفسها جزءاً من ثمار فكر النهضة؟. ألم تساهم الأحزاب الراديكالية القومية منها والماركسية في إيقاظ المجتمع من سباته الطويل، وتأصيل وعي جديد بين مكوناته وشرائحه المختلفة؟.

عندما نراجع مسار تاريخ هذه الأحزاب، على الرغم من تأشير نقاط إيجابية في صالحها، أو صالح بعضها، نجد أنها بترويجها للرومانسية الثورية من جهة، وبنائها تنظيمياً على آلية المركزية الديمقراطية التي تحولت بالتطبيق إلى مركزية غير ديمقراطية، وإهمالها لفكرة الحرية الفردية لمصلحة مفهوم الجماهير قد أضرت بأسس فكر النهضة (وهي أسس أية نهضة حقيقية) وهي: العقل والحرية وتفتح ممكنات الذات الإنسانية.

انتعشت فيما بعد الأفكار الراديكالية بصيغها الماركسية والقومية في العراق، نتيجة عوامل إقليمية ودولية أكثر مما هي محلية، ومنها: الحربان العالميتان الأولى والثانية وانهيار الدولة العثمانية والولوج في عهد الاستعمار وقيام الثورة الروسية الشيوعية ١٩١٧ وشيوع الأفكار الاشتراكية واليسارية في الغرب والشرق إلى جانب صعود الفاشيات في أوروبا، وظهور حركات التحرر في الدول الواقعة تحت نير الاستعمار. فضلاً عن بروز القضية الفلسطينية بعد قيام دولة إسرائيل بدعم وغطاء غربيين.

نشط التيار القومي منذ بدايات تأسيس الدولة العراقية، لأن رجالاتها الأوائل كانوا من القوميين الليبراليين المتأثرين بالتحولات السياسية والثقافية الجارية في تركيا. ولكن يجب التركيز على تأثير الداعية القومي ساطع الحصري، وهو من أصول سورية كان من ضمن طاقم الملك فيصل الأول الذي كلفه بإدارة قطاع التربية والتعليم فطبعه بطابع فكره منذ ذلك الحين. والحصري كان متأثراً بالأفكار القومية الألمانية والفرنسية، وبدعاة القومية التركية ذات التوجه العلماني كما عُرفت في طروحات جمعية تركيا الفتاة، إلا أن المنحى الراديكالي للحركة القومية في العراق قد تأكد مع دخول حزب البعث كحركة سرية إلى العراق في بداية الخمسينيات (أول قيادة قطرية تشكلت في العام ١٩٥٣ وأمين سرها فؤاد الركابي) وقد روج البعث لفكر ميشيل عفلق المتأثر هو الآخر بالأفكار القومية في أوروبا إلى جانب استعارة بعض المفاهيم الماركسية. ومع البعث عرف العراق أكثر تجاربه السياسية دراماتيكية وإخفاقاً.

الفكر الماركسي

أما الفكر الماركسي فقد دخل العراق هو الآخر في وقت مبكر مع حسين الرحال (المولود في العام ١٩٠٠)الذي قرأ التراث الفكري لكارل ماركس والفكر الاشتراكي باللغة الألمانية/ الأم يوم كان بصحبة والده العسكري الذي ذهب إلى ألمانيا في بعثة عسكرية، وهناك أنهى الدراسة الثانوية وعايش ثورة عصبة سبارتكوس الشيوعية في العام ١٩١٩ وحين عاد إلى بغداد أسس أول حلقة ماركسية مع أصدقائه ومنهم رائد الرواية العراقية محمود أحمد السيد وعوني بكر صدقي وعبد الحميد رفعت وإبراهيم عبد الجبار القزاز وغيرهم، حيث أصدروا أول جريدة هي (الصحيفة) في نهايات العام ١٩٢٤ تروج لأفكار الاشتراكية والتقدم والتحرر الاجتماعي.

تعددت الحلقات الماركسية والشيوعية فيما بعد، وبقيت متشرذمة، وكانت بحاجة إلى ذكاء وجهود شخصية كاريزمية من نمط يوسف سلمان يوسف (فهد) لتتحد تلك الحلقات، فانعقد اجتماع تأسيسي في بغداد بتاريخ ٣١/ ٣/ ١٩٣٤ بحضور أعضاء قياديين من مختلف مناطق العراق وتقرر تأسيس كيان سياسي مركزي باسم (لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار) حيث كانت كلمة (الاستثمار) تعني (الاستغلال) في الأدبيات السياسية في ذلك الوقت. وفيما بعد بدلت تسمية اللجنة المذكورة أعلاه إلى (الحزب الشيوعي العراقي). واستلهم هذا الحزب أفكار ماركس وأنجلس ولينين وبنى تنظيمه على وفق النموذج اللينيني الستاليني كما هو حال معظم الأحزاب ذات الطابع الراديكالي في العالم الثالث. وخاض نضالاً مريراً، شهد خلاله مراحل انتصارات وانتكاسات متعاقبة ولم تتسلم السلطة السياسية قط. غير أن تأثيره الكبير كان في الحقل الثقافي حيث أثّر في وعي وتفكير ونتاج القسم الأعظم من شريحة الأنتلجنسيا العراقية.

تراجع الفكر القومي العربي والفكر الماركسي بدءاً من نهاية السبعينيات في مقابل صعود الراديكالية الأسلاموية. وكان حرياً بأصحاب الفكر القومي والماركسي إعادة تقويم تاريخهم، ومراجعة مفاهيمهم وتصوراتهم وسياساتهم بروح نقدية علمية جريئة وصارمة. وإذ بات الماركسيون، أو بعضهم، يعيدون النظر في المقولات والشعارات والأطروحات الماركسية التقليدية بعد انهيار المعسكر الاشتراكي في العقد الأخير من القرن العشرين محاولين إغناء مفاهيم الفكر الماركسي وإعادة صلته بالواقع والحياة، والتخلص من العوالق الطوباوية، وتذليل أخطاء التجربة السياسية السابقة، فإن الأمر لم يجر بالطريقة ذاتها، حتى الآن على الأقل، مع أصحاب الإيديولوجية القومية الذين ظلوا مصرين على الدفاع الانفعالي المستميت عن طروحاتهم على الرغم من تنكيل الواقع والتاريخ بها. أما الفكر الليبرالي في العراق فلم يجد مرتعاً خصباً خلال عقود القرن العشرين، وبقيت القوى والأحزاب الليبرالية ضعيفة، وبلا سند اجتماعي قوي، أي أن الطبقة الوسطى العراقية لبثت دون مستوى النضوج الذي يؤهلها لتبني وقيادة مسيرة الديمقراطية في العراق وإنتاج فكر ليبرالي فاعل ومتكيف سياسياً وثقافياً. وباسم التصدي للأطماع الخارجية استطاعت الديكتاتوريات الاستمرار وتأجيل الممارسة الديمقراطية إلى إشعار آخر وزمن غير معلوم.

أدخلت الأحزاب الراديكالية مصطلحات جديدة في لغة السياسة وقاموسها المتداول منذ نشوئها، منها: الاشتراكية والصراع الطبقي والاستقلال والقومية والكفاح المسلح والتنظيم الطليعي والتقدمية والرجعية واليمين واليسار، وعشرات أخرى من المصطلحات التي لونت الخطاب السياسي العراقي خلال معظم عقود القرن العشرين وأعطته مضمونه وتوجهاته..

ولكن، وعموماً منذ الثمانينيات من القرن المنصرم بدا الخطاب السياسي العربي وكأنه يتنكر لمرتكزاته الإيديولوجية التي أرساها منذ مطلع القرن العشرين، أو منذ بزوغ تباشير فكر النهضة العربية، تلك المرتكزات المأخوذة من الأدب السياسي الغربي بشكليه (الليبرالي/ العلماني، والماركسي) ومن الأدب السياسي النضالي لحركات التحرر في العالم الثالث، فكشف هذا الخطاب عن انتهازيته ونفاقه وهو يتبنى منذ ذلك الوقت لغةً ومقولات تحاكي لغة التراث والدين ليساير المد الأصولي، أو يزاود على الحركات المعروفة بالإسلام السياسي، والذي راح ينشط منذ سماح الرئيس أنور السادات للأخوان المسلمين بالعمل السياسي لمواجهة قوى اليسار الناشطة في مصر منتصف السبعينيات، وبعد نجاح ثورة الخميني الإسلامية في إيران، وغزو الاتحاد السوفيتي لأفغانستان وما استتبعه من دعم غربي وعربي للحركة الجهادية في ذلك الصقع الساخن. حيث لا يمكن أن نفهم الصراعات السياسية والاجتماعية والمذهبية المحتدمة والمتأججة الآن إلا من خلال وضعها في سياقها الذي تجسد تلك المتغيرات أهم عوامله المشكلة.

خاتمة

أعترف أن هذه الدراسة (بحلقاتها الثمانية) كانت محكومة بمساحتها المحدودة. ويمكن قول الكثير بصدد المسائل التي طرحت فيها أو أغفلت. ومن هذه المسائل دور وتجربة المنتمين للثقافات العراقية الفرعية غير العربية (الكردية والتركمانية والسريانية) في تعزيز الثقافة النهضوية الوطنية. كما لم يجر رصد واسع لنشوء الحركات الدينية الراديكالية حتى تسيدها على الساحة السياسية العراقية بعد ٢٠٠٣/٤/٩ ومن جهة أخرى لم يتم التطرق إلى حقول ثقافية شهدت تطوراً في سياق النهضة وفكرها كالسينما والمسرح والإعلام المرئي والمسموع. فيما كانت الإشارات لدور الفنون الإبداعية الأخرى في حركة النهضة مختزلة. وأرجو أن تتاح لي الفرصة مستقبلاً لتلافي هذه الثغرات.

بابل ضوع التاريخ وعطر الأمجاد

فؤاد يوسف قزانجي
استاذ جامعي

مدينة بابل تقع جنوب بغداد على بعد ٩٠ كم عنها، في الاصل قرية زراعية تعود الى عصر العبيد (٤٠٠٠ ق.م) ثم اصبحت مدينة سومرية باسم (كاد نكر- را) وهناك اثار اكدية في المدينة في حدود ٢٠٥٠ ق.م كما ذكرت المدينة في اخبار سلالة اور الثالثة في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد.. وعندما حلت القبائل الامورية القادمة من الغرب فيها سميت (بان –ايلو) او (باب- ايلي) والاسم في الحقيقة ترجمة للصيغة السومرية ومعنى الاسم باب الاله او باب الالهة.. وهنا جاء اسمها بابل Babylon اما في التوراة، فقد سميت بابل)) Babel لأنه في بابل بلبل لسان كل الارض ومن هناك بددهم على وجه الارض)) (٢) لكن بابل لم تصبح مدينة ذات شأن الا في زمن الملك حمورابي سادس ملوك الامويين في العصر البابلي الاول (١٨٨٠- ١٥٨٠ ق.م) التي اتخذها عاصمة لدولته ومركزا لتوحيد بلاد اكد وسومر او بلاد الرافدين وتعد بابل اكبر مدينة في العالم القديم واشهرها حيث يبلغ مساحتها زهاء (٣٠ كم ٢) وكان نهر الفرات يمر في وسطها وعليه اعظم الجسور في العالم القديم حيث يتألف من (٧) ركائز في النهر كل ركيزة طولها (٢١ م) وعرضها (٩ م).. ويبلغ عرض الجسر (٩ م)، وظلت تشع حضارة لفترة تقارب (١٥) قرنا.

وتعود معظم ابنيتها الباقية الى الفترة البابلية- الكلدية خاصة في زمن الملك العظيم نبوخذ نصر (٦٠٤- ٥٦٤ ق.م) وقد تعرضت المدينة الى غزوات ودمار متكرر بسبب هجمات الاقوام العيلامية والارامية والاشورية والاخمينية والفرثية وغيرها (٣).

واجمل عمارات المدينة باب عشتار الذي كانت جدرانه مزينة بالكاشي الازرق مع اشكال بيض على الجدران، موجودة حاليا في بناء مماثل في مدخل المتحف الالماني للاثار في برلين ووضعت نسخة منه في نفس المكان الذي شيدت به في بابل، وهي مدخل شارع الموكب الشارع الخاص باحتفالات الاكيتو والمناسبات الاخرى وبقرب البوابة ومعبد ايزاكيلا العظيم، وهناك الزقورة التي عرفت ببرج بابل والتي كانت تتألف من سبع طبقات او مصطبات يتربع على قمتها معبد (ايتمانكي) ويقدر ارتفاعها بحوالي (٩٠ م) وهي اعلى بناء في زمانها.. اما قصر نبوخذنصر وحدائقه المعلقة التي وصفها المؤرخ اليوناني هيرودتس بانها احدى عجائب الدنيا.

وتعتبر بابل من اكثر اوجه تراثنا الحضاري العظيم روعة وكمالا فهي فضلا عن كونها عاصمة لامبراطورية عريقة في العالم القديم، تعد مركزا مشعا في الثقافة والعلوم والاداب حيث ازدهرت حضارة العراق القديم ووصلت الى ذروتها في المعرفة فقد وجدت فيها تقسيمات الوقت والايام والاشهر والسنة التي كانت تبدأ بشهر نيسانو.. كما عرفت حركة الكواكب والنجوم والابراج واكتشفت مبادئ الرياضيات والهندسة وكتبت في زمانها اعظم الاساطير والملاحم الشعرية كما عرفت اساليب الحياة المنظمة والري.

وقد وردت بابل في العهد القديم (التوراة) عدة مرات التي صبت عليها سورة غضبها بسبب السبي البابلي لليهود، ولكن عندما هدأت نفوسهم نجد في شعر ارميا وصفا جميلا لها: "بابل كاس بيد الرب تسكر كل الارض" و"بابل.. ايتها الساكنة على مياه كثيرة الوافرة الخزائن" وقد وجدت نصوص كثيرة تتحدث عن عظمة بابل بالذات في مكتبة اشور بانبيال في نينوى وكذلك في مكتبة بورسبا ومن هذه النصوص التي تدل على مكانة بابل في العالم القديم على النحو التالي:

١-بابل المدينة التي تكره الشر.

٢-بابل تضم حياة الارض.

٣-بابل رابطة السماء والعالم السفلي.

كان يحيط بالمدينة سوران فالسور الخارجي كان يسمى (نمتلي- انليل) ومحيطه بين (١٨- ٢٠كم) والسور الداخلي المسمى (أمكر- بيل). وعرفت بابل ايضا بأسماء اخرى (كن –تر- كي) اي موطن الحياة وكذلك (شور –ان – كي) وتعني يد السماء، و(نون- كي- كشكال) وتعني بوابة او مدخل (الدنيا) (٤).

وكان عيد (اكيتو) أجمل الاعياد البابلية، يقاوم كشكلا في بداية كل عام في الشهر الاول من السنة وهو نيسانو، وهو عيد له علاقة وثيقة بعقيدة البعث وخروج الاله البشري تموز او دموز من العالم السفلي، حيث يقضي الناس في الاحتفالات الدينية في بشرى مجيء الربيع ومجيئ الاله تموز... وفي بداية هذه الاعياد يجلب الاله (نابو) من معبد (اي زيدا) اي البيت الحصين من مدينة بورسيبا لزيارة والده الاله العظيم مردوخ.. وكانت بيت الاحتفالات يقع عادة خارج المدينة اي في نهاية شارع الموكب.. ولكل يوم من ايام الاعياد والتي تستمر (١٢) يوما مراسيم وكانت اجمل الاشعار والابتهالات تنظم من اجل بابل والالهة ومن الاشعار الجميلة التي قيلت في عيد الاكيتو دعاء الى الالهة:

امنحي الحياة لشعب بابل، الخاضع لك.

دافعي عنهم امام مردوخ ملك الالهة.

ليعظمك الناس ويكبروا ربو بيتك.

ليتحدثوا عن بطولتك ويبجلوا اسمك.

امنحي الرحمة للعبد الذي يسترحمك.

خذي بيده عند الضيق الشديد وعند الفاقة.

حتى يمشي دائما في سعادة وهناء

لكي يتكلم عن بطولتك الى الناس (٥).

ويكفي ان بابل انتجت اعظم الشرائع والقوانين الاولى للانسانية في عهد ملكها العظيم حمورابي (القرن الثامن عشر قبل الميلاد) الذي يعد مؤسس مدينة بابل ومنظمها.. وكانت مسلة حمورابي قد وضعت في مكان بارز في بابل ليقرأها الناس وينعموا بالعدل.

في عام ٥٣٨ ق.م سقطت بابل في ايدي الفرس وتبعهم جيوش الاسكندر الاكبر الذي وجد انها قد بدأت تتداعى من الاهمال الذي جرى اثناء الحكم الفارسي فقام بترميم قصر نبوخذنصر ومعبد ايزاكيلا الع